كتب

كريم مروّة

بيار أبي صعب

«نضال البشريّة من أجل نظام أفضل لحياتها، لن ينقطع رغم الانهيارات التي شهدها القرن العشرين». في كل ما كتبه المفكّر والكاتب اللبناني أخيراً، تطالعنا تلك النظرة «المتفائلة» إلى المستقبل، مرفقة بمراجعة للتجربة السياسيّة التي بنى عليها وعيه وتاريخه ومشروعه. ما زال كريم مروّة يصنّف نفسه على أساس انتمائه التاريخي إلى اليوتوبيا الاشتراكيّة، و«مشروع ماركس لتغيير العالم الذي سقط في منتصف الطريق». ومن هذا المنطلق يقدّم في كتابه «نحو نهضة جديدة لليسار العربي» (الساقي)، مقترحات نقديّة، مدرجة في سياقها التاريخي، كي «يستطيع اليسار في عالمنا العربي أن (...) يستعيد موقعه ودوره المفترضين من حركة التقدّم». ويقدم باقة مختارة من النصوص المرجعيّة لماركس وإنغلز وغرامشي... الكتاب يستحق نقاشاً معمّقاً في الأسس والتحديدات والتحليلات التي يضعها «الرفيق أبو أحمد» بين يدي ما يسمّيه «اليسار الجديد» المدعو إلى النهوض واستئناف المسيرة. علماً أنه لا يدّعي غوصاً في إشكالات فكريّة أساسيّة، بل يكتفي بإعلان مبادئ، يتأرجح بين البراغماتيّة والطوباويّة: قد يبقى بعض القرّاء على جوعه مثلاً أمام تشخيص ديكتاتوريّة السوق في زمن العولمة ووسائل مقاومتها، أو أمام تناول الحركات الدينيّة وجذورها في حركيّة الواقع، أو لدى تحديد أطر النضال من أجل تحرير الأرض. وقد يجد البعض الآخر نفسه أمام مشروع سوسيو ـ ديموقراطي في المصاف الأخير، وإن لم يذهب الكاتب إلى النهاية في تسميته وتحديد معالمه. حتّى إن الجزء الأكبر من برنامجه لليسار الجديد، من السهل أن يتبنّاه أي حزب يميني معتدل. لكن ما هم؟ حين نقرأ جديداً لكريم مروّة، نفكّر أن الدنيا ما زالت بألف خير!

سوسيولوجيا

فالح عبد الجبار يوم نطق شيعة العراق

ضمن بحث ضخم ونادر، يشرّح الباحث العراقي جذور الحراك السياسي الشيعي في بلاد الرافدين. في «العمامة والأفندي» (دار الجمل)، يقدّم عالم الاجتماع محاولة لفهم العلاقة بين المقدّس والدنيوي في حركات الاحتجاج الدينية في العراق بمقارنة مع الثورة الإسلاميّة في إيران

نوال العلي

هي محض مصادفة أن نحكي عن كتاب فالح عبد الجبّار «العمامة والأفندي» (دار الجمل ـ تعريب أمجد حسين) في الذكرى السابعة لسقوط بغداد التي تصادف اليوم. هنا، ينجز عالم الاجتماع العراقي بحثاً ضخماً هو واحد من الأعمال النادرة التي تناولت جذور الإسلام الشيعي و«سوسيولوجيا خطاب وحركات الاحتجاج الديني» وتجاوزت النموذج الإيراني، مولية جلّ تركيزها للحالة الشيعية العراقية المعقدة. رغم أن الحراك النضالي الشيعي في العراق سبق الثورة الإيرانية، بحسب الباحث، إلا أن الاهتمام بجذوره وسياقه الاجتماعي لم يلق العناية التي حظي بها شيعة إيران.

وقد يعود ذلك إلى أسباب كثيرة، لن تستثنى منها صعوبة إجراء أبحاث ميدانية قبل سقوط بغداد وحتى بعدها، ولا سيما حين يتعلق الأمر بالعراقيين الذين كانوا «يلطمون الصدور في حي الفقراء غرب بغداد (مدينة الصدر الآن) يوم سقوط تمثال صدام حسين»، والذين كانوا بذلك يقدمون «عرضاً رمزياً للولاء للإمام وتعبيراً عن الاحتجاج وبياناً جسدياً يحمل ضيم الماضي». كان هذا الاحتفال مكتنزاً بالرموز وخاوياً من اللغة السياسية. في جمهورية الصمت هذه، يحتاج المرء إلى أن يتعلم النطق. الحشود التي تجمّعت لم تكن قادرة على أن تنطق شعاراً سياسياً واحداً، «لهذا، غدت الرموز الثقافية الخرساء وسيلة لإظهار الهوية».

يمكننا تصوّر الجهد الذي تكبّده صاحب «الديموقراطية المستحيلة» خلال سبع سنوات (بين 1991 و1998) للإحاطة بالبنى الاجتماعية للشيعة منذ تكوّن الدولة العراقية الحديثة. هم لم يؤلفوا تركيبة واحدة واضحة ومتماسكة، بل كانوا منقسمين إلى جماعات متعددة، ولم يعبّروا عن هويتهم بوصفهم الطائفي، بل كان انتماؤهم الفعلي عشائرياً محضاً.

وإن كان الشيعة منذ العشرينيات منقسمين إلى مسارين متعارضين بين دعاة الوطنية العراقية ودعاة الطائفية المحلية، غير أن الطبقات الاجتماعية الشيعية لم تتطور إبّان الحكم الملكي. حتى المتشرّبون بالنزعات الطائفية منهم كانوا ينخرطون في أي سياسة دستورية تقرّ بوجود الدولة الوطنية العراقية. كان الموقف المشترك بين الاثنين هو الإجماع على عراق واحد. حتى حين اتخذت مجموعات شيعية متفرقة مواقف المعارضة، كان محرّكها دوماً قضايا على رأسها الغبن في التمثيل السياسي والتظلمات الاقتصادية، من تأميم الأوقاف الشيعية ومصادرة أملاك زعمائها إضافة إلى ما يسمّيه الباحث «الانتهاك الثقافي» مع بزوغ العلمانية ودعاة الحداثة الفكرية.

أمّا عن مبررات النشوء الفعلي للحركة الإسلامية الشيعية الحديثة في عتبة النجف سنة 1958، فيعزوها عبد الجبار، رئيس «معهد دراسات عراقية» في بيروت، إلى التحوّلات التي مثّلت ثورة تموز (يوليو) 58 مفتاحاً لها. من بين هذه التحوّلات أفول الطبقة الاجتماعية القديمة،

> **الغبن السياسي والاقتصادي كان محركاً لكل معارضة شيعية**

بما فيها طبقة رجال الدين، وانتقال السلطة إلى الطبقات الوسطى الحديثة بعدما ألغيت ملكية الشيوخ للأراضي، وأقرّ قانون جديد للأحوال الشخصية، وانتشرت الماركسية على نحو شعبي كبير.

كل هذه التغيّرات السريعة أحدثت صدمة حقيقية لعلماء النجف. من هنا، نشأت جذور «حزب الدعوة الإسلامية» وراحت تخوض معركة مع الماركسية. وبدءاً من هذه البذرة التي تمثلت في مفهوم أصولي مناهض للعلمانية، تحوّل مسار الحركة الإسلامية الشيعية إلى الاحتجاج على التمييز نتيجة لممارسات حكم الأخوين عارف العسكري، قبل أن تتحوّل إلى الراديكالية في ظل نظام «البعث».

ويشير عبد الجبار إلى أن انقسام القطاعات الناشطة في طبقة رجال الدين بين إصلاحيين وتقليديين، والانقسام وفق خطوط القرابة والمدينة والإثنية أدّيا إلى «تعميق الانقسامات الفقهية والإيديولوجية والسياسية بين كربلاء والنجف والكاظمية وقم، أو بين العناصر والأسر الفارسية والعربية».

هذه الطبيعة المتشظية للمرجعية في الإسلام الشيعي في العراق زادت في ظل العقوبات الاقتصادية التي فرضت على العراق أواخر التسعينيات وأدت إلى تقسيم النفوذ تقسيماً إقطاعياً وتسييس الهوية المذهبية. ويرى عبد الجبار، الذي عمل أستاذاً في مدرسة السياسة وعلم الاجتماع في «كلية بيركبيك» في جامعة لندن، أن هذه «التعددية ضمن طبقة رجال الدين، المتشظية أبداً، من شأنها أن تبقى المعيار السائد في عراق ما بعد الحرب».

«العمامة والأفندي» مرجع يصفه صاحبه بأنه «محاولة لفهم العلاقة بين المقدّس والدنيوي في مناشئ حركات الاحتجاج الدينية في العراق بمقارنة مضمرة مع إيران». هاتان المفردتان تلخّصان التاريخ الذي مرّ به الرأس العربي، من العمامة التي كانت تعبّر عن الهوية والطائفة والدين، وصولاً إلى الطربوش وميل الناس إلى تذويب هوياتهم الطائفية في لباس لا يعبّر عن عرق ولا دين. وربما يجدر الآن أن يكتب كتاب «العمامة والأفندي والعمامة مرة أخرى» أمام الميل إلى التعبير بتطرّف عن الهوية بعد أفول النظام العالمي المبني على اقتصاد السوق المنظّم كما بشّر به آدم سميث، وبعد نظريّة صموئيل هنتينغتون «صراع الحضارات» التي استبدلت القوميات بجزر معزولة بجدار الدين. أمرٌ يقتضي زحفاً عسكرياً في كل مرة تكون ذرائع مثل تحقيق الديموقراطية أو الثورة حفلاً تنكرياً للوصول إلى الثروة.

دراسة أدبية

محيي الدين صبحي مفككاً قصيدة جوزف حرب

حسين السكاف

«يجمع شعر جوزف حرب بين الجمالية السامية والجدية الهادفة. ومثل هذا النتاج يتهيّبه الدارسون لأنه يحتاج إلى مناهج نقدية مختلفة عما هو متداول في سوق النقد». بهذا الرأي، يفتتح الناقد السوري الراحل محيي الدين صبحي (1935 ـ 2003) كتابه «جوزف حرب وأمطار الوردة السوداء» الذي أعادته «دار الريس» أخيراً إلى النور. ورغم اعتراف صبحي بصعوبة الخوض في تجربة حرب الشعرية، إلا أنه تناول هنا خمسة دواوين دفعةً واحدةً: «شجرة الأكاسيا» و«الخصر والمزمار» و«مقص الحبر» و«مملكة الخبز والورد» ثم ألحقها بفصل خاص بديوان «السيدة البيضاء في شهوتها الكحلية». ولم يكتفِ بهذا، بل أفصح لنا عن الأدوات التي استخدمها في تحليله للقصائد عبر تساؤل ممهّد للفكرة: «هل الصورة في الشعر حُلم؟» فيجيب: «الصورة في الشعر حلم، وباعتبارها كذلك، فهي قابلة للتأويل والرجوع إلى اللاشعور الجمعي والنماذج البدئية التي تعمّره. وقد رجعت في هذا الصدد إلى موسوعة تفسير الأحلام والرموز الفنية (...) ولدهشتي تجلت للقصائد معان جديدة (...) لا يمكن التوصل إليها عن طريق التحليل الأدبي وحده». عبر «شجرة الأكاسيا»، يرى صبحي أن حرب يؤمن بأن العصر الحديث لم يلتجئ إلى الأساطير القديمة، بل استخرج أساطيره، بينها أسطورة «شجرة الأكاسيا». لكن كيف وجد صبحي علامات الأسطورة في هذه القصيدة؟ «في «شجرة الأكاسيا»، أعماق الوادي هي الحياة. والسوق هي ساحة الصراع البشري. وشجرة الأكاسيا على حافة الوادي هي العدالة والحرية والسلام. (...) والحلم البشري هو الصعود من هذه السوق عبر الوادي إلى الحرية». هكذا رسم جوزف حرب أبعاد أسطورته الملحمية التي لم تقف عند «شجرة الأكاسيا» بل نجدها ممتدة إلى «مملكة الخبز والورد». هذا الديوان يعدّه صبحي تطبيقاً للمنهج الأسطوري وفق ما وضعه صاحب كتاب «المدونة الكبرى ـ الكتاب المقدس والأدب» الكندي نورثروب فراي. ومن هذا التطبيق، استخلص صبحي رؤيته من داخل النص، بشأن فلسفة الصراع والموت والانبعاث الأسطوري لإقامة المدينة الفاضلة. هو يرى أن «حرب نظم ملحمة أعاد فيها كتابة تاريخ الإنسانية الجواني منذ الخليقة الأولى إلى طموحها الأخير والدائم في تحقيق جنة الله على الأرض». ومرة أخرى، يكشف صبحي، حين يروي قصة القصيدة، أنه اعتمد مبدأ التأويل وحلّ رموز القصيدة عبر تفسير الأحلام وفك رموز الفن التشكيلي ودلالات اللون الفلسفية.

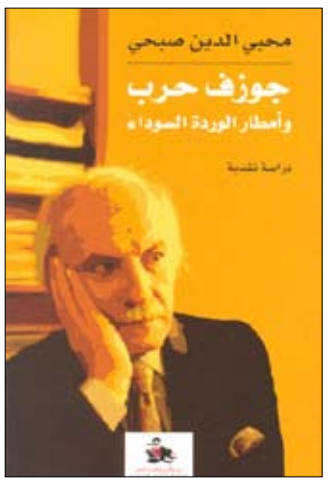

> **تحليل الشعر في ضوء الفن التشكيلي وتفسير الأحلام**

أما ديوان «السيدة البيضاء في شهوتها الكحلية»، فهو في رأي المؤلف «ملحمة اجتماعية ذات غايات أخلاقية. فهي رحلة في مفهوم خلق الرجل والمرأة ورحلة في أعماقيهما، وتصوير للصراع الذي عاشه كلّ منهما مع نفسه ومع الآخر منذ بداية الخلق». ثم يلبّي المؤلف دعوة الشاعر ويرتحل في الأعماق ليجد أن هناك خطأً كونياً يتمثل في «استئثار الرجل بالتحكم في المجتمع تحكّماً مطلقاً يقوم على استبعاد المرأة واستعبادها»، ثم يوجه الشاعر دعوته، إلى تصحيح هذا الخطأ الكوني بـ«إتاحة الفرصة للمرأة كي تستعيد بياضها بعدما خنقتها حملقة الرجل وحضارة الرجال وقوانين الرجال، فاستحالت إلى اللون الكحلي: لون الغريق المخنوق». يدخل صبحي أيضاً عالم الطفولة، حين يرى في جوزف حرب «شاعر الطفولة بامتياز».